

## عبد الغفار مكاوي ويوسف الشاروني

### لمحات من سيرته الذاتية

### وصداقة أكثر من ستين عاما

بقلم: يوسف الشاروني (\*)

لن تسمعوا الليلة صوتي كما تتوقعون، بل ستستمعون إلى صوت عبد الغفار مكاوي، أحد أصدقاء العمر، وهو يتحدث عن صداقتنا التي امتدت أكثر من ستة عقود، وفيها تشهدون تواضع الكبار الذي هو صفة أصيلة من صفات نبل عبد الغفار. وهي كلمات مستوحاة بمعظمها مما ألقاه في اللقاء الذي أقامه المجلس الأعلى للثقافة احتفالاً بعيدي الماسي عام ١٩٩٩. وهو يستهل كلمته بالاعتذار أنه لم يخلق رساماً أو نحائناً أو موسيقياً لاستعادة ما يطلق عليه «آلاف النظرات الحنوننة، واللمسات الدافئة والابتسامات الطيبة والأسئلة الملهوفة عن الصحة والأحوال والأعمال. وليس أمامي في هذه العُجالة إلا أن أرصد بعض ما يحضرنى منها من الأحداث والمواقف والخواطر والذكريات.

كانت أول مرة رأيت فيها عبد الغفار مكاوي في مكتبة جامعة القاهرة عند صديقنا المشترك بدر الدين الديب الذي كنا نتردد عليه في ذلك الزمن عام ١٩٥٠ أو قبلها أو بعدها بقليل أثناء دراسة عبد الغفار الجامعية ولصداقتي المميزة مع بدر الديب بعد تخرجي عام ١٩٤٥ وتخرجه في السنة التالية عام ١٩٤٦، وربما كان من الحاضرين في هذه اللقاءات محمود أمين العالم الذي كان عبد الغفار قد تعرف عليه قبل ذلك في مكتبة قسم الجغرافيا حيث كان يعمل أميناً لها. ويعلق عبد الغفار على اسم أمين العالم بقوله: ومن عجب أن الأمانة جزء لا يتجزأ من اسمه وسيرة حياته. ثم يتحدث عن نفسه - كشأنه - بتواضع معلنا حاجة النائه الحائر (هكذا

(\*) الأديب والروائي المصري الشهير.

يصف نفسه في هذه المرحلة العمرية) لئيد الطيبة التي تدله على الطريق وتظل ممسكة بيد حتى لا يقع أو ينكص أو يتوقف.

وهو مشكوراً يعرف السامعين بي: زيادة لقصيدة النثر «المساء الأخير». وكتابة القصص القصيرة ونشرها في مجلة الأديب اللبنانية وهو أحد قرائها ويحجلني حين أسمعهم وأقرؤه يقول لعلني كنت قد قرأت قصصه الأولى كدفاع منتصف الليل والوباء وغيرهما في تلك المجلة وتأثرت بهما تأثراً لا يقل عما فعله بي في ذلك الوقت كل من كافكا وألبر كامو.

ثم يعلن حلقة من حلقات تواصلنا الأولى كنت قد نسيتهما تماماً وذلك حين يقول: الأهم أن الراعي الطيب - هكذا يلقبني مشكوراً - طلب مني في ذلك الوقت إحدى قصصي وأرسلني بنفسه إلى مجلة الأديب اللبنانية لكي أفاجا بنشرها وأتشجع على مواصلة النشر فيها .. أعلا الآن أنها كانت قصة ساذجة وشديدة الارتباك والتواضع - ربما أكثر من كل قصصي التي تخلو من هذه الصفات - نبرة تواضع يتسم بها معظم ما كتبه عن نفسه -، والتي كنت واقفاً، تلك المرحلة تحت تأثير خليط مضطرب من أدباء الغرب وأدباء العرب. ثم يستطرد مشكوراً لكنني أعتقد الآن أن تأثير القصة التي كان يكتبها الشاروني ظل متصللاً وفعالاً.

ثم يواصل عبد الغفار سيرته الذاتية المبكرة قائلاً في نبرته المتواضعة - يسكن بدر الدير القديم - أعلى عمارة في شارع مراد بالجيزة - في أواخر الأربعينيات أو أوائل الخمسينيات تكرر اللقاء المؤثر مع يوسف الشاروني وعدد آخر من الأصدقاء الكبار في المقام والسلم والمعرفة والخبرة في الكتابة والتجريب الذي شغل جيلهم وجيلنا كله بتغيير العالم بالكلية التي تصوروا أنها نفسها فعل ثوري. ما أكثر ما عرفت في هذه اللقاءات وما أعظم ما تعلمت واستمتعت وتعذبت أيضاً.. كان معظم الحاضرين - مع استثناءات قليلة - من خريجي أقسام الفلسفة ومحربي الكتابة الطليعية واللامعقول، ثم يتساءل: هل نبتت منذ ذلك الحين فكاهة الكتاب الرائع ليوسف الشاروني عن أدب اللامعقول في مصر؟ هنا ترددت أسماء كثيرة سر بعضها سنوات من عمري مثل كافكا وكامي اللذين سبق ذكرهما بجانب هيدجر وسارتر وولكه وميتزلنك والرومانسيين الألمان الذين كان لا ستأذنا عبد الرحمن بدوي فضل تقديمهم تلك السنوات إلى العربية. وهنا أيضاً شرح لي بدر الدير فلسفة سارتر بدقة وإيجاز شديدي وأسمعنا بعض أقاصيصه الغريبة - من كتاب حرف الحياء الذي لن ينشره إلا بعدها بعقود ثلاثة وبعض مسرحياته القصيرة، وكان يدرّس المسرح اليوناني منتدباً في معهد الفنون المسرحية

أغراني بعشقي اليونان عموماً وبمسرهم بوجه خاص - وهنا أيضاً سمعنا بعض قصائد الشاروني التي نشرت بعد ذلك في «المساء الأخير» وربما سمعناه يقرأ بعض قصصه أو على الأقل يكلمنا عنها - وكم كان النقاش يجتدم حتى لتتحول الحجرة المحدودة إلى ميدان تتظاهر فيه وتتعاكس شتى الاتجاهات التي تغلي بها ساحة الحياة العقلية والسياسية تتجاوزها الماركسية والوجودية والحماسة الملتهبة للحرية والوطنية والأدب والفن الجديد .. وهنا أخيراً لن أنسى أن المرحوم فتحني غانم - الذي لم يتصل بعد ذلك أي خيط بيني وبينه - كان يلعب الشطرنج بعد أن يعصبوا عينيه برباط سميكة فيهزم كل من يتجرأ باللعب معه دون مجهود يذكر.

اتصلت اللقاءات بعد انتقال الشاروني .. إلى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب وبعد تعييني - بفضل توفيق الحكيم رحمه الله وفي أيام إدارته - بدار الكتب المصرية. وكان أن دعاني يوسف لزيارته وعرفت الطريق إلى بيته العامر بالحب والدفء والنظام والجمال والانسجام وأشهى ألوان الطعام - بفضل رقيقة العمر التي ظللت وجوده ودعمته وحمته من رياح القلق والتوتر وهواجس الغبن والجحود. في هذا البيت العامر بالمعادي عرفت في تلك الفترة وبعدها بسنوات طويلة عددًا ممن أعتز بصداقتهم وأهجع بفضلهم تحت سقف البيت المعطر بالحب والرضا والأنس والألفة. تعرفت إلى الشاعر والروائي والعالم والمهندس والمترجم الكبير محمد الحديدي الذي استحق بإنسانيته ووفائه ونبله أن يكون من أقرب الناس إلى قلب الشاروني إن لم يكن أقربهم إليه. كما أسعدني الحظ - على غير عادته معي! - أن أتعرف أيضاً على نهاد شريف ذلك الطائر الرقيق المحلق على آفاق المستقبل وزيادة أدب الخيال العلمي.

في هذا البيت العامر أيضاً لقيت راعينا الأكبر محيي حقي وكان في صحبة زوجته الفرنسية - لا أذكر الآن متى كان ذلك، ولا إن كان هذا اللقاء قد سبق انضمامي إلى أسرة تحرير المجلة تحت رئاسة صاحب العصا والقنديل رحمه الله أو لحقه - لكنني أذكر تمامًا كيف أن التأثير باللقاء لم يكن أقل من التأثير بأعمال هذا الأب العظيم والمعلم الكبير.

وأقفز على صهوة خيول الزمن لأصل إلى صيف سنة ألف وتسعمائة وستة وسبعين عندما تزامنا في منحة للأدباء الأجانب من بلدية برلين بفضل أستاذي العظيم المستعرب فريتس شتيايت وتلميذه الصديق الرائع والناقد اللامع ناجي نجيب رحمه الله وعطر سيرته (من يتذكر الآن هذا المترجم القدير إلى اللغة الألمانية لعدد من روائع أدبنا القصصي؟! ) أقمنا معاً في مسكن واحد حوالي ستة شهور بضاحية (فانزبه) في برلين الغربية آنذاك بفضل دليلا الطيب

ناجي نجيب واتصلت زيارتنا لبيت أستاذي وصديقي شتيبات شفاه الله وعافاه من مرضه الأخير، وتعرفنا بفضلته إلى عدد من أدباء المدينة وأديباتها ودارسي الأدب العربي فيها سواء في بيته في حي فريديناو أو في حلقة البحث التي أقامها عن تطور القصة العربية منذ ألف ليلة والمقامات إلى عصرنا الحاضر في معهد الدراسات الإسلامية الذي كان رئيسه وعميده. ثم يستأنف متواضعاً: نهض يوسف الشاروني بالعبء الأكبر في حلقة البحث هذه ولرأى أن سوي «سنيد» يكتفي بالتعليق أو المشاركة في الشرح والترجمة - ولرأى يوسف الشاروني - بحاسة التنظيم والترتيب المذهلة لديه - أن يحضر إلى برلين وهو على أتم استعداد لهذه الحلقة الدراسية وغيرها من اللقاءات والندوات (التي كان من حظنا أن يشارك فيها عزيزنا المرحوم عبد الحكيم قاسم الذي كان يعيش أيامها في برلين قبل أن يقتنع أخيراً وبعد عشر سنوات من إقامته فيها ثم عودته النهائية إلى مصر أنه أديب مبدع قبل أن يكون دارساً أو ناقداً).

إن أنس فلن أنسى من ذكريات حياتنا وإقامتنا المشتركة في برلين أمرين تجدر الإشارة إليهما. فقد خطر لنا أن نترك وراءنا أثراً يدل علينا وربما ينجح في تقديم لمحة خاطفة عن ملامح أدبنا وذهبت للقاء أستاذ جامعي وشاعر مجدد - وهو فالتر هولر - أسندت إليه الهيئة التي أعطتنا المنحة السابقة الذكر مهمة الإشراف على سلسلة كتيبات بعنوان «كولوكيوم» (حديث أو حوار مشترك) تنشر فيها نماذج مختارة من مؤلفات الأدباء الأجانب الذين تستضيفهم مدينة برلين عاماً بعد عام. حدثت الرجل عن فكرتنا، وسلمته ترجمات بالألمانية لثلاث قصص هي رائعة يوسف الشاروني «الزحام» مع قصتين متواضعتين لي كان قد ترجم إحداهما صديقنا الحبيب ناجي نجيب. تعال الرجل - في شبه اعتذار فوري ونهائي - عن صعوبة النشر وضيق الميزانية وضرورة انتظار رأي المحكمين .. إلى غير ذلك من التعليقات التي توهمت آنذاك أنها تثنى بالاستعلاء الغربي أو المركزية الأوروبية المقيتة .. تركت له القصص وسلمت وشكرت وانصرفت وليس عندي أدنى أمل .. وما هو إلا أن أيقظني صوت الهاتف في الصباح المبكر لليوم التالي مباشرة .. وإذا به صوت الأستاذ والشاعر الذي يلح على حضورنا إليه في أسرع وقت ممكن لتوقيع العقد وأخذ صورة الغلاف التي كانت تلتقطها زوجته، مع عتاب ضاحك لأن القصص حرمت النوم وشدته إليها من أول سطر فلم يتركها من يده إلا بعد أن انتهى من قراءة آخر سطر .. وما أسرع ما التقطت عدة صور ظهرت إحداها بعد ذلك على الغلاف.

كما تم نشر الكتيب نفسه مع التعقيب البديع بقلم أستاذنا وراعينا فريتس شتبيات، في وقت قياسي.

وهكذا امتدت علاقتنا حتى آخر لحظات حياته حيث كنا نلتقي أسبوعياً والسيدة الفاضلة قرينة الدكتور عبد الغفار الدكتورة عطيات أبو السعود (كما اقترنت ترجمتها لكتاب «رحلة مع اليوتوبيا» أو «المدينة الفاصلة عبر التاريخ» المنشور في سلسلة عالم المعرفة بالكويت عام ١٩٩٩ بمراجعة الدكتور عبد الغفار مكاوي) أقول كنا نلتقي أسبوعياً في مقهى بشارع جامعة الدول العربية بالمهندسين مع أصدقاء مبدعين مثل الأستاذ فؤاد قنديل والدكتور أحمد إبراهيم الفقيه والشاعر عبد القادر حميده والروائي محمد جبريل وزوجته الدكتورة زينب العسال، لنشارك مؤخراً في وداع جسده، لكنه باقٍ معنا بإبداعه ومودته.